صفحات من مذكرات احمد الحسني البغدادي
في مواجهة الدّين الآخر
تنشر لأول مرة
المؤتمرات العربية والإسلامية والدولية
رفض.. حضور.. مواقف
(٢)
المؤتمر الإسلاميّ الشعبي(١)

عُقِدَ في بغداد عام ١٩٨٢م، وكان النظام يعقده سنوياً، ويُرْغِمُ «الحوزة العلمية» على حضوره، وقد وجهت إليَّ دعوة رسمية بَيْدَ أني مِن حيث المبدأ لم أحضر احتفالات النظام السابق، أو مؤتمراته وندواته إطلاقاً، لأنها تعقد زوراً وبهتاناً باسم «الإسلام والوطنيّة».. واستجوبتُ تارةً، وهدّدت تارةً أخرى بِسَبَبِ رفضي المطلق حضورَ تلك المراسيم، لاسيَّما هذه الدعوة التي وجِّهتْ إليَّ لحضوره وكان برئاسة الشَّيخ عليّ كاشف الغطاء الأمين العام للمؤتمر، وتحت رعاية صدّام حسين.

وقد حاول السيّد عبد الرزاق الحبُّوبي إقناعي، وهو عضو ما يُسَّمى بـ «المجلس الوطني»، والمبعوث الشخصي مِن قبل عبد الله فاضل السامرائي وزير الأوقاف والشوؤن الدينيّة، وقدَّمَ المصحف الشريف هديةً باسمه مكتوبةً بخطهِ، ثُمَّ بعد ذلكَ طرح رأيه بضرورة الاستجابة لحضور المؤتمر «فقط» واللقاء مع «السيّد الرئيس»، وعدم حضور جلساته، أو التوقيع على مقرراته وتوصياته، وبالتالي تُقَدَّمُ إليَّ هدية هي سيارة مِن أحدث الموديلات - لا أذكر ماركتها أو ثَمَّنها - حتَّى لو كانت مِن خلف الأبواب المغلقة.. ومما قال في هذا الصدد: وعلى هذا المبدأ الثابت استجاب زملاؤك ومِنهم: السيّد محمَّد الصَّدر، والسيّد محمَّد مهدي الخرسان، والسيّد حسين بحر العلوم، وقد جرى هذا الحدّيث بحضور الشَّيخ عبد العالي محمَّد حسن المظفر، والشَّهيد الحاج محمَّد عليّ نصار، والشَّهيد فيصل الحَسني البغدادي، كان الأخير آنذاك مختفياً عندي بِسَبَبِ رفضه أداء الخدمة العسكرية الإلزامية للعدوان على إيران الإسلام.

فكان جوابي لأبي آلاء الحبُّوبي: لا يمكن تلبية مثل هذه الدعوة، والجلوس مع قتلة الشَّهيد محمَّد باقر الصَّدر رضوان الله عليّه اطلاقاً، وبمجرّد أن تفوهتُ بهذه الكلمةِ خرج المظفر مِن الجلسة، وارتبك الحبُّوبي معترضاً في منتهى الأدب: لقد احرجت موقفي بهذا التصريح، ولاسيما بحضور هذا الشخص الـ «المشبوه» يقصد الشيخ المظفر ولعليّ لا أُبالغ في القول إنَّ الحبوبي كان في مقدوره «اعتقالي»، إلا أنَّ تربيته وقيمه الأخلاقية لا تسمح له بمثل هذا التطلع الإجرامي، على الرَّغم مِن «نظرية المؤامرَّة»، واطروحة تواطؤ الآخرين المخالفين كانت تستقر في عمق عقلي السياسيّ.

ومهما يكن مِن أمر هذا كُلِّهِ، في مساء اليوم الثاني، دون إستئذان مسبق، هجم عليَّ عزيز صالح النومان عضو فرع حزب السلطة ـ حينذاك ـ وبصحبته العقيد سروح الرمادي «أبو مخلص» مدير أمن النَّجف، والأخير يهدد ويتوعد بالويل والثبور على كُلِّ مَن لا يشترك في المؤتمر مهما يكن مركزه الدِّيني في العراق.

تحدثتُ معهم كثيراً عن طبيعة المجتمع العراقيّ، وكيف يكون موقفهُ معادياً لكُلِّ مَن يستجيب لمثل هذه المناسبات.. سواء كانت المبادرة مِن دولةٍ تقدميةٍ أم رجعيةٍ، والشاهدُ على ما أقول هو موقفهم الشهير ضدّ المؤتمر الإسلاميّ المسيحي العالمي المنعقد في الخمسينيات في مدينة بحمدون اللبنانية بحجَّة مواجهة الخطر الشيوعي، وعلى إثر ذلكَ المؤتمر تصدى الشَّيخ محمَّد حسين كاشف الغطاء الفقيه المصلح الجريء للمؤتمر المذكور، وأصدر رسالةً مفتوحةً مكثفةً إلى المؤتمرين تحت عنوان صارخ: «المثل العليّا في الإسلام لا في بحمدون» فَضَحَ فيه خطورة الاستكبار الاميركي والبريطاني سواءً بسواءٍ، وقال بالحرف الواحد: هناكَ فرقٌ كبيرٌ، ومسافةٌ طويلةٌ بين مواجهة الخطر الشيوعي الأحمر مِن جهةٍ، ومواجهة الخطر الصهيونيّ الاستيطانيّ الأصفر مِن جهةٍ أُخرى.

وعندما أدرك هؤلاءِ مِن خلال حديثي أني أرفض الحضور بادرني إبن النومان صارخاً بوقاحةٍ وغضب: أنتَ ومَن معك تلعبون بالنار.. ويجب أن تستجيبوا لتلبية هذه الدعوة، وإلا سيكون مصيركم كمصير باقر الصَّدر «المقبور!!..»... وغادروا المنْزل تلاحقهم الخيبة والخسران.

بقيت صامتاً لا أُجيب على هذا الاستفزاز، الذي وجِّهَ إليَّ، وبقيت لائذاً بالصمت، والصمتُ المطبق اكثر بلاغةً مِن الرد، ووضحت صورة هؤلاء المجرمين أمامي، ورحتُ في سري أترحم على المرجع المفكر الشَّهيد الخالد السيّد الصَّدر، وإذا بصَّوت في داخلي يصرخ بيَّ أنت «مسكين» إنَّهُ قد انتهى الآن، وتحرر مِن قيود الدُّنيا الفانية، وظلم الإنسان، الإنسان، واستغلال الإنسان الإنسان، ووفد لملاقاة ربه تَعَالَى نقي الثوب.

ومِن العجيب الغريب أَن نشاهد اليوم غيره ممن يدعي أَنَّهُ : مِن «رموز» مدرسته «وعضدّه المفدى» يطارد وراء الزعامة التضليلية، وترك في أَيَّام النضال السلبي مشروع القيادة الجماعية الرباعية النائبة بِسَبَبِ حب الأنا الإبليسية والفرعونية، والسّير الحثيث نحو تمزيق فصائل الحركة الإسلاميّة، وكسب باسم مدرسته الجهادية الإسلاميّة الملايين مِن الدولارات، مِن الكويت وإيران حصراً، إذ هو وأنصاره سوف يتركونها لغيرهم ينعمون بها، ويتحملون هم أوزارها في (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)(٢).

وفي مساء اليوم الثالث كنتُ عند السيّد حسين محمَّد تقي بحر العلوم، فسألته: هل اجتمع بك السيّد الحبُّوبي مبعوثاً مِن قبل وزير الأوقاف؟ نفى الاجتماع مع الحبوبي لكنَّه أردف قائلاً:

زارني أبو مخلص مدير أمِن النَّجف، وهددني إذا لم أحضر المؤتمر، فعدت أساله: وماذا كان موقفك مِن هذا التهديد؟.. فأكد أنه سوف يُنفّذُ طلبه مهما أثيرت عليه الشكوك والشبهات مِن قبل انصار الجمهورية الإيرانية الإسلاميّة في العراق وخارجه، لأنه يخافُ مِن القتل المحتوم.

إلا أني وضعتُ كُلّ توقعاتي أمامَهُ، وحرصت أن أكون واقعياً موضوعياً، واقترحتُ عليه الاستعانة بأُستاذنا الخوئي بحجَّة أنَّ الخوئي لا يقبل التفريط بـ«حوزته العلمية»، وقلت له

بالحرف الواحد إنَّ حضورك سيفتح باباً إنتهازياً، فلا بد مِن وحدة الموقف داخل الحوزة النَّجفية «وزعيمها»، كما كنت تسميه بالأمس القريب، فأجابني بلا تردد: إنَّ الخوئي لم يكن زعيماً مطاعاً، ولم يكن مهاباً عند الحكومة حتَّى أستعين به.

ذهبتُ إلى أبعد مِن ذلكَ مع بحر العلوم، وقلت له صراحةً: كيف تواجه المتدينين مِن الحركة الإسلاميّة، الّذين كانوا أعضاء في مكتبة العلمين العامة، التي لا زلت أنت مديرها.. وهم الآن بين مقتولٍ ومعتقلٍ ومشردٍ ومختفٍ، وكنْتُ تحثهم مِن خلف الأبواب المغلقة ضدّ الطَّاغُوت، وتُعَد أنت السبب الأول والأخير لكلِ ما جرى عليّهم مِن ويلاتٍ وفجائعٍ ونكبات وفي مقدمتهم أعضاء إدارة المكتبة كالشَّهيد الشَّيخ عبد الجبار فرج الله، والشَّيخ مهدي العطار؟!..

لم يقتنع بحر العلوم بهذه اللغة، وبقي مصراً على رأيه، واستمر في تأييد صدّام حسين(٣) مِن خلال تصريحاتهِ ومقابلاتهِ المقروءة والمرئية، ومِن خلال حضورهِ بين الحين والآخر في التجمعاتِ والاحتفالاتِ الدينيّةِ والوطنيّة، التي تُعقد في حرب الجمهورية الإسلاميّة في إيران.

وفي الحقّيقة.. فقد تذكرتُ «الآن» أَنِّي رأيته بأم عيني يظهر على شاشة التلفاز مع وطبان ابراهيم وزير الداخلية ربِيْع ١٩٩١، أي بعد انتكاسة الانتفاضة الشعبانية، وجدتُه يتظاهر بأَنَّهُ مريض، ويتكلّم معه بصوت خفيض، وأنا لا أسمع إلا الشيء القليل مِن كلامه، ورأيتُ وطبان يجيبه بابتسامةٍ خادعةٍ بليغةٍ قوية: إن السيّد الرئيس القائد في حاجةٍ أن تدعو له عند الله تَعَالَى بالنصر والسؤدد على المستكبرين، فرفع يديه إلى السماء بصَّوت مسموع: يا الله احفظ السيّد الرئيس صدّام حسين هو قائدنا الأوحد بلا منازع، ودان له شعب وادي الرافدين بالخضوع والطاعة.. اللهم أنصره دائماً، كما نصرته بالأمس القريب، على القوم الظالمين ـ يقصد المنتفضين في الخامس عشر من شعبان آذار ١٩٩١م ـ ثُمَّ طلب مِنه إجراء الفحوص الطبية في مستشفيات أوروبا فبادره وطبان: لا داعي لذلكَ، سوف ندخلك أرقى مستشفى في بغداد، وهي باسم عدنان خير الله وزير الدفاع، لا يدخلها إلا المسؤولون في المواقع المتقدمة للحزب وحدهم.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ)(٤).

---

(١) هذه الفقرةُ كانت تحت عنوان: «صِراع مع المؤتمر الاسلامي الشعبي» لم أَقْمْ بتغييرها أو اضافة شيءٍ عليها.. وهي فصل من فصول كتابي: «السلطة والمؤسسة الدينية الشيعية في العراق حوار صريح مع آية الله أحمد الحسني البغدادي» اصدار المركز العراقي للاعلام والدراسات،ط:٢٠٠٢م.

(٢) سورة الشعراء، الآيات :٨٨ ـ ٨٩ .

(٣) أقرأ: وثيقة سرية مِن ملف المخابرات العراقيّة حول بحر العلوم حصراً، زائداً «الحوزة العلمية» تأريخها.. واقعها.. وخطة العمل المرحلية والمستقبلية، وفيها ترى موضوعات مثيرة للجدل لم تكن في

الحسبان، نشرها عادل رؤوف مع تعليّقاته الملتزمة في كتابه القَيِّم: أنبياء وأصنام «حوزة» الأرض والوطن «حوزة» الوافدين الى الوطن، صفحة:٣٤٩، الطبعة الرسمية الثانية ٢٠٠٩م.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٩ ـ ١٢ .